فلسفة الدين والسياسة عند باروخ سبينوزا

م.د. مصطفى فاضل كريم الخفاجي
جامعة بابل/ مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية

البريد الإلكتروني Email : m.mostaffa@uobabylon.edu.iq

الكلمات المفتاحية: فلسفة،دين،سياسة،سبينوزا.

كيفية اقتباس البحث

الخفاجي ، مصطفى فاضل كريم ، فلسفة الدين والسياسة عند باروخ سبينوزا، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية،٢٠٢٠، المجلد:١٠ ،العدد:٣ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

Philosophy of Religion and Politics by Baruch Spinoza

Dr . Mustafa Fadel Karim Al-Khafaji
University of Babylon
Babylon Centre for cultural and historical Studies

Keywords : Philosophy, religion, politics, Spinoza.

How To Cite This Article
Al-Khafaji, Mustafa Fadel Karim, Philosophy of Religion and Politics by Baruch Spinoza, Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, Year :2020,Volume:10,Issue 3.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract

Espinoza's religious and political philosophy is of particular importance today because it links the acceptance of modern science with the traditional perception of normative philosophy function. By liberating the mind from heresies and the myth of old beliefs through the freedom of thought in religious subjects and the need to separate religion from state policy and renounce all political rule that claims to derive his authority from the source of the divine and this is addressed by Espinosa (political theological research). Spinoza is considered one of the greatest advocates of "not mixing religion and the state" as the guarantor of freedom of thought and belief, which we describe in the second title of a letter in theology and politics in which Spinoza considers that freedom does not pose a threat to the integrity of the state. It is the freedom to interpret the religious text, since no one has the right but the exclusive right to monopolize the act of interpretation. In other words,

Spinoza's work is directed mainly at every priestly authority. His defense of freedom of thought and belief in his realization is evident in a new interpretation of the Bible that does not depart from or deviate from ontology, as its features explained in the first part of the book "Al-Atiqah"; Therefore, his defense of democracy was based on the search for a system that provides a great guarantee for freedom, which is explained by his work of defending "secularism" and criticizing the theocratic regime Spinoza's criticism stems, initially, from the fact that the Bible is the word of God that aims to teach people true happiness, but the people's interpretations have moved away from the true essence of religion. Therefore, the historical criticism of the books of the book aims to show this real priesthood and not the similarity of bridging all who are seen as Science or philosophy, and not accepting what is not clear; Any sign of his health, which Spinoza declares at the beginning of the book, where he says: "I resolved seriously and without pretension, to return again, with intellectual freedom, to examine the Bible, and not to prove or accept anything from his teachings that I did not draw from it quite clearly," On the basis of this rule, I have formed a method for the interpretation of the Holy Scriptures, "a method" that does not differ from that adopted in the interpretation of nature, but rather agrees with it completely ", which considers nature as a self-standing substance that depends in its existence only on itself, and is subject only to its internal laws that can Her knowledge of reason, just as everything is inferred from the Bible, is only understood through his inner laws in complete independence from anything that does not belong to the text.

ملخص البحث

إن فلسفة إسبينوزا الدينية والسياسية ذات اهمية خاصة اليوم لإنها تربط قبول العلم الحديث بالتصور التقليدي لوظيفة الفلسفة المعيارية ، إذ انه فهم طبيعة الانسان بصورة صحيحة وان تحليله للموقف السياسي هو بالتالي تعليم سياسي صحيح ، كما بنى مذهبه الفلسفي واتجاهاته الفكرية التي اصدرها عن مبدأ خلقي بطريقة تمكن بها من تحرير العقل من البدع وخرافة المعتقدات القديمة من خلال حرية الفكر في الموضوعات الدينية وضرورة فصل الدين عن سياسة الدولة ونبذ كل حكم سياسي يدعي بانه يستمد سلطته من مصدر الهي وهذا ما تناوله اسبينوزا في (البحث اللاهوتي السياسي) . يعتبر سبينوزا من أكبر المدافعين عن " عدم المزج بين الدين والدولة " بوصفها الضامنة لحرية الفكر والعقيدة، وهو ما نلفيه في العنوان الثاني لرسالة في اللاهوت والسياسة الذي يعتبر فيه سبينوزا أن الحرية لا تشكل تهديدا على سلامة

الدولة. وتتمثل في حرية تأويل النص الديني حيث ليس لأحد الحق دون غيره في احتكار فعل التأويل؛ أي أن العمل الذي قام به سبينوزا موجه أساسا نحو كل سلطة كهنوتية. ويتجلى دفاعه عن حرية الفكر والعقيدة في إعماله تأويلا جديدا للكتاب المقدس لا يخرج ولا يشذ عن الانطولوجيا كما توضحت معالمها في الجزء الأول من كتاب "الإتيقا"؛ لذلك كان دفاعه عن الديمقراطية من منطلق البحث عن النظام الذي يوفر ضمانة كبرى للحرية، وهو ما يفسره عمله المتمثل في الدفاع عن " العلمانية " ونقد النظام الثيوقراطي.

وينطلق نقد سبينوزا، بداءة، من أن الكتاب المقدس كلام الله الذي يستهدف تعليم الناس السعادة الحقيقية، غير أن تفسيرات الناس ابتعدت عن الجوهر الحقيقي للدين، لذلك فإن النقد التاريخي لأسفار الكتاب يستهدف إظهار هذا الكنه الحقيقي وليس الشبيه لإلجام كل من ينظر إليه على أنه علم أو فلسفة، وعدم قبول ما لا يكون واضحا؛ أي علامة على صحته، وهو ما يصرح به سبينوزا في بداية الكتاب، حيث يقول: " عزمت بجدية وبدون ادعاء، على أن أعيد من جديد، بحرية فكرية، فحص الكتاب المقدس، وألا أثبت أو أقبل شيئا من تعاليمه لم استخلصه منه بوضوح تام، وعلى أساس هذه القاعدة كونت طريقة لتفسير الكتب المقدسة " ، وهو منهج " لا يختلف عن ذاك المعتمد في تفسير الطبيعة، بل يتفق معها كليا " ، الذي يعتبر الطبيعة جوهرا قائما بذاته لا يعتمد في وجوده إلا على ذاته، ولا يخضع إلا لقوانينه الداخلية التي يمكن معرفتها بالعقل، مثلما يستنتج كل شيء من الكتاب المقدس، يُفهم فقط من خلال قوانينه الداخلية في استقلالية تامة عن أي شيء لا ينتمي إلى النص .

المقدمة

يقوم إسبينوزا في مذهبه الفلسفي واتجاهه الفكري عن مبدأ خلقي ، ويتلخص هذا المبدأ في البحث عن طريقة يناط بها تحرير العقل من البدع والخرافات التي سيطرت عليه بفضل المعتقدات القديمة ، التي بلغ من ترسيخ الزمن والعادة لها في الذهن ، الاعتقاد بأنها واضحة بذاتها ، ولها يقين لا ينازع لذلك نراه يتناول في (البحث اللاهوتي السياسي) موضوع حرية الفكر خاصة الموضوعات الدينية ، ويرمي الى تأكيد ضرورة فصل الدين عن الدولة ، اذ يحمل بشدة على كل حكم سياسي يدعى انه يستمد سلطته من مصدر الهي ، فيسخر إسبينوزا بنصوص التوراة ، لأنها جاءت على حد قوله تناقض نفسها ، لاسيما ما ترويه عن المعجزات .

يرمي إسبينوزا كذلك أن كل ما في الكون يحدث وفق قوانين ثابتة ومنتظمة لا تحتمل استثناء،ومن ثم فعلى الفيلسوف ألا يلتزم باللاهوت التقليدي ، بل يتعين عليه أن يفكر بحرية

وفي استقلال تام،فالعقل هو الذي يقرر وجود ذلك الجوهر الذي لا يتناهى في أزليته وهو الله . والواقع أن رسالة إسبينوزا هي ثورة على الاوضاع الثقافية والسياسية في عصره ، بل وفي كل عصر ، وتطبيق لأحكام العقل في مجال الدين والسياسة ، حتى لا يخلط الناس بين البدع الانسانية والتعاليم الالهية ، أو بين التصديق الساذج والايمان الصادق .

كان سبينوزا قد اخذ فكرة ديكارت فيما يختص بفصله بين المادة والعقل وإرجاعهما في نهاية المطاف الى الله باعتباره الجوهر الاوحد الحقيقي فصاغها في نظرية وحدة الوجود بصورة دقيقة ، فليس العقل والمادة عند سبينوزا سوى صفتين من الصفات الكثيرة التي يتصف بها الجوهر الواحد الحقيقي وهو الله ولكنهما الصفتان الوحيدتان اللتان يستطيع أن يدركهما الانسان . ومن خلال ما تقدم وجدت انه من الضروري البحث في فلسفة الدين والسياسة عند باروخ إسبينوزا . وقد قسم البحث الى ثلاث مباحث بعد المقدمة ، درست المبحث الاول من خلال مطلبين تناولت في المطلب الاول سيرة حياة باروخ إسبينوزا ، ودرست في المطلب الثاني فلسفة ومنهج باروخ إسبينوزا ، وقد حمل المبحث الثاني فلسفة الدين عند باروخ إسبينوزا ، اما المبحث الثالث فقد تناولت به فلسفته السياسة ، ومن ثم النتائج التي توصلت اليها من خلال البحث ومن ثم قائمة المصادر والمراجع .

الباحث

((المبحث الاول))

(المطلب الاول)

حياته ومصنفاته

ولد باروخ إسبينوزا في ٢٤ نوفمبر عام ١٦٣٢م في إمستردام ، لأسرة يهودية انتقلت من اسبانيا الى البرتغال فراراً من الاضطهاد وقد أظهر باروخ منذ طفولته وفي صباه فيما بعد على نحو افضل ، أن الطبيعة لم تكن جاحدة بالنسبة اليه وقد كان المرء يعترف له بسهولة ويسر بأنه كان واحداً ممن يتمتعون بخيال حي وبعقل نفاذ (١) .

كانت حياة سبينوزا ، على قصرها ، خصبة بما أنتجه الفيلسوف من الكتب والرسائل التي دارت على الكثير من المسائل . ولم ينشر سبينوزا في حياته غير كتابين اثنين ، لم يصدر باسمه سوى واحد منها فقط ، هو "مبادئ فلسفة رينيه ديكارت" وملحقه الصادر بعنوان "خواطر ميتافيزيقية" وقد نشر هذا الكتاب بأمستردام ، وأما الكتاب الثاني فهو "الرسالة في اللاهوت والسياسة" ورغم أن هذا الكتاب قد نشر بأمستردام عام ١٦٧٠م فقد كتب على الغلاف انه طبع في هامبورغ

بألمانيا ولم يذكر اسم صاحبه (٢) . تلقى اسبينوزا اللغة العبرية والتوراة والتلمود والفلسفة اليهودية للعصر الوسيط وصناعة صقل زجاج النظارات لما كان مقرراً من أن يتعلم الحاخام صناعة يدوية . ولكن داخله الشك في الدين ، فعدل عن مشروعه ، وتحول إلى العلوم الإنسانية ، وأخذ يتردد على الأوساط البروتستانتية ، فلقى فيها طبيباً تيوصوفياً من القائلين بوحدة الوجود لقنه الطبيعة والهندسة والفلسفة الديكارتية ؛ ثم قرأ (جيوردانوبرونو) *وغيره من فلاسفة العصر بين محدثين ومدرسيين . فازداد ابتعاداً عن اليهودية ؛ ورأى زعماؤها أن يستبقوه في حظيرتها وعرضوا عليه مرتباً ، فرفضه ؛ فأعلن الزعماء فصله من الجماعة (١٦٥٦) وحصلوا من السلطة المدنية على أمر بإقصائه عن المدينة إذ كان البروتستانت أيضاً يعدونه رجلاً خطراً . فأقام عند صديق في إحدى الضواحي، ومكث هناك خمس سنين يكسب رزقه بصقل زجاج النظارات، فكان أصدقاؤه يأتون من المدينة فيحملون الزجاج ويبيعونه فيها (٣) .

وعلى إثر غزو جيوش لويس الرابع عشر لهولندا الحزب الأورنجي على الحكم بعد أن أثار الجمهور ضد الأخوين جان ، وكرنليوس دي ويت اللذين وقع اغتيالهما والتنكيل بهما بأبشع الطرق ، مما كان له الوقع الكبير في نفس سبينوزا وفي تلك الفترة شرع يكتب . ثم أخذ ينتقل في هولاندا ، وكان أينما يحل يلقي أصدقاء معجبين به معتنقين مذهبه ومن المعجبين به القائد الفرنسي كوندى conde عرض عليه أن يقيم بفرنسا ويتناول معاشاً ، فرفض ؛ وأمير ألماني عرض عليه في نفس العام منصباً بجامعة هايدلبرغ ، فرفض كذلك مخافة أن لا تتوفر له الحرية في التعليم . وكان مصدوراً بالوراثة ، فكان مرضه من جهة ، وكانت الفلسفة من جهة اخرى ، يحملانه على المعيشة البسيطة الهادئة الوادعة ، فلقب بالقديس المدني ، وكانت وفاته في ٢١ فبراير ١٦٧٧م بمدينة لاهاي (٤).

أتخذ اللغة اللاتينية لساناً يحرر به . وكان أول ما كتب (١٦٦٠) رسالة "في مبادئ فلسفة ديكارت مبرهنة على الطريقة الهندسية" كتمهيد ومدخل لفلسفته الخاصة ، ، ثم عرض فلسفته في "الرسالة الموجزة في الله والإنسان وسعادته" كتبها لا صدقائه المسيحيين ولم تنشر ، وقد ضاع الأصل وبقيت ترجمتان هولانديتان نشرتا عام ١٨٥٢ ، ثم وضع رسالة "في إصلاح العقل" هي بمثابة مقدمة في المنهج وفي قيمة المعرفة ، أو هي من طراز "المنطق الجديد" لفرنسيس بيكون ، و "قواعد تدبير العقل" و "المقال في المنهج: لديكارت ، و "البحث عن الحقيقة" لمالبرانش ، وكللها كتب تريد الاستغناء عن منطق أرسطو وإقامة المنهج العلمي (٥) .

غير أن سبينوزا ترك رسالة ناقصة ، فنشرت كما هي بعد وفاته وكان الجدل شديداً حول مسائل الوحي والنبوءة والمعجزات وحرية الاعتقاد ، فدون في ذلك "الرسالة اللاهوتية السياسية" نشرت

عام ١٦٧٠ غفلا من اسم المؤلف ، فعدت خلاصة الكفر وكان أثناء تلك السنين يعمل في كتابه الأكبر "الأخلاق" ويوالي تنقيحه وتفصيله ، ويطلع أخصاءه على ماينجز منه ، فيتدارسونه ويكتبون إليه فيما يصادفون من مشكلات وكان قد حظر عليهم إطلاع أي إنسان على ما لديهم منه قبل الاستيثاق من خلقه ، ورفض الإذن لأحدهم باطلاع ليبنتز ثم أطلعه هو على الكتاب بعد أن توثقت الصلة بينهما ، وهو غير مرة بنشره فكان يحجم خشية الفتنة ، فلم ينشر الكتاب إلا بعد وفاته ، وقي أواخر حياته (١٦٧٥-١٦٧٧) دون "الرسالة السياسية" فنشرت كما هي بعد وفاته كذلك (٦) .

(المطلب الثاني)

منهجه وفلسفته

قبل كل شيء يجب التفكير في وسيلة شفاء العقل وتطهيره لكي يجيد معرفة الاشياء هذه الوسيلة هي التمييز بين ضروب المعرفة وتقدير قيمة كل منها لأجل الاهتداء إلى المعرفة الحقة ، هناك معرفة سماعية تصل إلينا بالفعل ، مثل معرفتي تاريخ ميلادي ووالدي وما اشبه ذلك ، وهي معرفة غير علمية ، فإذا صرفنا النظر عنها ، انحصرت المعرفة في ثلاث ضروب : الضرب الاول معرفة بالتجربة المجملة أو الاستقراء العامي ، وهي إدراك الجزئيات بالحواس على ما يتفق بحيث تنشأ في الذهن أفكار عامة من تقارب الحالات المتشابهة مثل معرفتي أني سأموت لكوني رأيت أناساً مثلي ماتوا ، وأن الزيت وقود للنار ، وأن الماء يطفئها . هذه المعرفة متفرقة مهلهلة ، وأصل اعتقادنا بهذه الأفكار وأمثالها ، أننا لم نصادف ظواهر معارضة لها ، دون أن يكون لدينا ما يثبت لنا عدم وجود مثل هذه الظواهر ، الضرب الثاني معرفة عقلية استلاليه تستنتج شيئاً من شيء ، كاستنتاج العلة من المعلول دون إدراك النحو الذي تحدث عليه العلة المعلول ، أو هي معرفة تطبق قاعدة كلية على حالة جزئية ، كتطبيق معرفتي أن الشيء يبدو عن بعد أصغر منه عن قرب ، على رؤيتي للشمس ، فاعلم ان الشمس أعظم مما تبدو لي هذه المعرفة يقينية ، ولكنها هي أيضاً متفرقة لا رابطة بين أجزائها (٧) .

يذهب الفكر بسبينوزا هنا الى ما للفهم من قدرة ، من تلقاء ذاته على تكوين أفكار حقة في العلوم الرياضية ؛ فالفهم ينطلق من أفكار بسيطة ، من غير الممكن إلا أن تكون حقة ، لأنه من المحتم ، بحكم بساطتها ، أن تكون متعينة تمام التعين ؛ ومن قبيل ذلك الامتداد والكم والحركة ، وهو يصطنع أفكاراً مركبة بربطه بين أفكار بسيطة ؛ ومن قبيل ذلك فكرة الكرة ، المتولدة من دوران نصف دائرة حول قطرها ؛ وكل فكرة من هذه الأفكار هي ماهية متعينة أتم التعيين ، لا تحيج الذهن أبداً الى الاخذ ببديهيات كلية ومجردة (٨) .

أما الضرب الثالث يتم عرض مذهبه بتلخيص ثلاثة من كتبه وهي : إصلاح العقل ؛ والأخلاق ، والرسالة اللاهوتية السياسية . واصحاب كتاب الاخلاق ، فإنه جامع يلخص الكتب السابقة ويكملها وقد نهج فيه المنهج الهندسي ، وهو المنهج اللائق بمذهب وحدة الوجود الذي ينزل من الواحد إلى الكثير ، والكتاب مقسم الى خمس مقالات : الأولى في الله ؛ والثانية في النفس ، طبيعتها وأصلها ؛ والثالثة في الانفعالات أصلها وطبيعتها ؛ والرابعة في عبودية الإنسان أو في قوة الانفعالات ؛ والخامسة في قوة العقل أو في حرية الإنسان فالأخلاق موضوع المقالتين الأخيرتين (٩) .

ولكن سبينوزا أطلق هذا الاسم على الكتاب كله لأن غاية النظر عنده العمل ، ولان اتجاهه الأساسي أخلاقي كما هو الحال عند الرواقيين والطريقة القياسية فيه مفتعلة يتناول الفيلسوف الظواهر المعلومة بالملاحظة الظاهرة أو الباطنة ، وهي كثيرة فيحولها إلى نتائج أقيسة تحويلاً صناعياً ، ويضع لذلك تعريفات هي أحرى بأن تكون مطالب تقتضي البرهان من أن تكون مقدمات مسلمة للبرهان ؛ ومن المبادئ والتعريفات ما يعارض بعضه بعضاً ، مثال ذلك : لكي يبرهن على أن الجوهرين المتغايرين لا يحدث احدهما الآخر ، يستند إلى مبدأ يقول إن شيئين ليس بينهما شيء مشترك لا يكونان علة ومعلولا . ولكي يبرهن على أن العقل الإلهي لا صلة له إطلاقاً بالعقل الإنساني ، يستند إلى مبدأ يقول أن ليس بين العلة والمعلول شيء مشترك ؛ بل احياناً يجئ البرهان على نقيض المطلوب (١٠) .

كان سبينوزا استنباطي بامتياز ، والتعبير النهائي عن فلسفته هو كتابه (الأخلاقيات المبرهن عليها في نظام هندسي) الذي كتب باللغة اللاتينية في القرن السابع عشر ولكنه لم ينشر إلا في عام ١٦٧٧م بعد وفاته وفيه اعلن سبينوزا نظاماً فلسفياً كلياً يسير في موازاة هندسة أقليدس. فالتعريفات مدرجة والبديهيات موضوعة ثم هناك العدد الكبير من القضايا والاستنتاجات المبرهنة عليها بالتفكير الذي يسوغه في كل مرحلة أنه ينجم بطريقة متدرجة عن التعريفات والبديهيات وكما يوحي العنوان فإن هدف سبينوزا هو إعطاء الشرح للخير بالنسبة إلى الإنسان ، وفي الأجزاء الأخيرة من العمل نجد شرحاً مفصلاً للعواطف والانفعالات الإنسانية ولطبيعة الحرية . ولكن الجزء الأول والأشهر من العمل ينشئ نظرية ميتافيزيقية في الكون من المبادئ الأولى بدءاً بما يراه سبينوزا الفكرة الأساسية وهي فكرة الجوهر (١١) .

إن المذهب السبينوزي،اذا أخذناه في جملته ، مذهب في الخلاص عن طريق معرفة الله . فهدف الفلسفة التحري عن خير قابل لأن يتناقل ويكون اكتشافه مصدر فرح سام ومتصل الى الأبد ومن ثم لا يبدو للوهلة الأولى أنه يمضي في خط فلسفة ديكارت وفلسفة بيكون اللتين نحتا جانباً

مسألة المصير النهائي للإنسان لتتركا أمره للإيمان ؛ وانما تشابه السبينوزية من الناحية الخارجية واحداً من تلك المذاهب التيوصوفية ذات الأصل الأفلاطوني المحدث التي نلتقيها على مر التاريخ (١٢) .

نخلص مما سبق أن فكر إسبينوزا يقوم على اساس ثابت ، سواء في موقفه من الدين أو الاخلاق أو السياسة ، هو اعتماده على المعرفة العقلية الحدسية ، حيث يعتبر المعرفة التجريبية هي معرفة مهلهلة لا رابط لها ، وكذلك المعرفة العقلية الاستدلالية ، وهي الانتقال من الكلي الى الجزئي ، وهي ايضاً معرفة لا يمكن الاعتماد عليها لأننا نفتقد فيها أهم ميزتين للمعرفة اليقينية وهي الوضوح والتميز وبهذا يتابع ديكارت في اعتباره أن الحدس هو الطريق الوحيد المؤدي الى المعرفة اليقينية ، لقد تصورت فلسفة إسبينوزا العالم على أنه وحدة عضوية مطابقة لحياة الكائن الحي ، ويتمثل إسبينوزا الموجودات وعلاقتها بالكون ، كعلاقة الماثلة بين الاعضاء لجسم الانسان رغم أن كل منها حاصلة على وظائف تنفرد بها عن الاخرى ، الا أنها مع ذلك يتوقف وجودها وممارستها لوظائفها المحددة لها ، في ارتباطها بهذا الكل التي هي أجزاء منه (١٣) . وقد انكر سبينوزا أن يشتمل الكون على أية حوادث عارضة (غير ضرورية) مهما كانت اذ ليس في الكون شيء عارض ، ولكن كل الأشياء مشروطة بأن توجد وتعمل على نحو خاص بضرورة الطبيعة الإلهية وهذا ينجم بالضرورة عن واحدية سبينوزا لأن كل ما يوجد إنما هو مظهر للجوهر الواحد الذي هو الله . وبما أن ذلك الجوهر ذاتي العلة وحر الإرادة بالضرورة فإن كل صفاته يجب أن تنشأ من جوهره أو طبيعته ومن ثم فكل الأشياء مشروطة بضرورة الطبيعة الإلهية لا لتوجد فقط بل كذلك لتوجد وتعمل بطريقة خاصة ، وليس هناك شيء عارض (١٤) . إن القاعدة المنهجية لا تنهي سبينوزا عن استنباط العالم المحسوس ، كما تشاء الميتافيزيقا الفيضية فحسب بل تمنعه أيضاً من أن يتطلع على منوال فيلسوف مثل افلوطين الذي كان يشتق من الواحد علماً معقولاً إلى استنباط جملة الاشياء الثابتة إذ ان تصور كل شيء في آن معاً يتعدى بكثير قوى الفهم البشري وكما تستنبط الحقائق في الرياضيات واحداتها من الأخرى بدون أن يكون لسلسلة من نهاية أبداً وبدون أن تؤلف أيضاً كلاً واحداً لا يرى سبينوزا في كل شيء من تلك الأشياء الثابتة سوى حلقة في سلسلة أو آن من آناء تقدم ، لا جزءاً من كل لكن كما في الرياضيات أيضاً لا يمضي الاستنباط السبينوزي على غير هدى بل هو استنباط موجه نحو حل المسألة التي كانت منطلقة أعني مسألة الطبيعة البشرية وقدرتها واتحادها بالله (١٥) .

((المبحث الثاني))

الدين عند باروخ سبينوزا

لقد مست الحاجة الى الدين الوضعي لقصور جمهرة الناس عن مطالعة اوامر الله في نفوسهم . وإن الكتب المقدسة لتدلنا على أن الله أنزل وحيه على الانبياء بألفاظ وصور محسوسة أو متخيلة ، ما خلا المسيح ، فإنه عرف الله دون ألفاظ ولا رؤى ، واتصل بالله نفساً لنفس ، كما اتصل موسى بالله وجهاً لوجه . فلأنبياء لم يمنحوا عقلاً أكمل من عامة العقول ، وإنما منحو مخيلة أقوى ، فقد كان منهم الأميون ، وكان من الحكماء ، مثل سليمان ، من لم يوهبوا النبوة . واختلف الوحي عند كل نبي باختلاف مزاجه البدني ومخيلته وآرائه السابقة ، فإن الله لاءم بين وحيه وبين أفهام الانبياء وآرائهم ولما كان التخيل لا ينطوي بطبيعته على اليقين ، كما ينطوي عليه المعنى الجلي لم يكن الأنبياء على يقين من وحي الله بالوحي نفسه بل بعلامة ما ، وقد نبه موسى اليهود على أن يسألوا النبي علامة ؛ لذا كانت النبوة أدنى من المعرفة العقلية الغنية عن كل علامة ولما كان الله رحيماً بالكل ، كانت مهمة النبي تعليم الفضيلة الحقة لا الشرائع الخاصة بكل بلد ، فما من شك في أن جميع الأمم حصلت على أنبياء وإذا كانت التوراة لا تذكر شيئاً من هذا القبيل ، فلأنها تؤرخ لليهود فحسب (١٦) .

طبق سبينوزا منهج الأفكار الواضحة والمتميزة في ميدان الدين والعقائد فليس العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس بل هو أيضاً أفضل شيء في وجودنا ويكون في كماله خيرنا الأقصى وإذا كانت الأفكار الواضحة والمتميزة هي المثل الأعلى لليقين ، فإن سبينوزا يحلل النبوة ويخرجها من نطاق الأفكار الواضحة والتطورات الغامضة كما يرفض وضع الآيات الواضحة مع الأشياء الغامضة ثم تفسير الآيات الواضحة تفسيراً خيالياً حسب هوى المفسر كما يستعمل الوضوح والتميز كجدل في براهينه العقلية ، فما دام كل ما تعلمه بوضوح وتميز أما أن يكون معروفاً بذاته أو بغيره تعلمه بوضوح وتميز ، فإن المعجزة لا تستطيع أن تدلنا على وجود الله (١٧) .

أن جوهر الشريعة الالهية الطبيعية معرفة الله ومحبته ، وأن هذه الشريعة يدركها الإنسان في نفسه ، فهي مشتركة بين جميع الناس ولا تقتضي الإيمان بقصص تاريخية أيا كان موضوعها ، وإن كان لنا في هذه القصص عبر عملية في تدبير حياتنا . إن مثل هذا الايمان ، حتى لو كان موضوعه صادقاً ، لا يعطينا العلم بالله ، ولا من ثمة محبة الله ، يجب أن يستمد العلم بالله من معان كلية يقينية . كذلك تقتضي الشريعة الإلهية الطبيعية شيئاً من الطقوس ، إذ ليست الطقوس في ذاتها خيراً ولا شراً ، وليست تزيد عقلنا كمالاً ، والتقوى إنفعال نافع للجمهور ضروري لهم ، ولكنه عديم الجدوى للذي يستطيع أن يعمل بالعقل ما تحمل التقوى على عمله بالانفعال . ولا يمكن أن يكون الاتضاح فضيلة، لأنه يتضمن الحزن وشعور المهانة والعجز ، كذلك ليس الندم فضيلة . لأنه نتيجة الجهل الذي يجعلنا نعتقد أنه كان بإمكاننا أن نفعل غير ما

فعلنا ([١٨]) . من الواضح ان إسبينوزا كان يحاول إثبات أن كل عصر مهما كانت السمة الفكرية السائدة فيه لا يخلو من اهتمام روحي معين وأنه أول من وضع لبنة المثالية الموضوعية في الفلسفة الحديثة فاسبينوزا أول من قال بالجوهر الواحد الذي يتجسد في المادة والروح وتعد الطبيعة مظهراً خارجياً له والأفكار والحالات العقلية مظهراً باطنياً له ([١٩]) .

إن فضيلة العقل تقوم في أن يغتبط الإنسان بعقله ويطمئن في نفسه ، على أن الإيمان بما يرويه الكتاب المقدس من أخبار ضروري جداً للجمهور العاجز عن إدراك الأمور بالعقل ، لأنها تؤيد عنده التعاليم النظرية الواردة في الكتاب من أنه يوجد إله صانع للأشياء ومدبرها وحافظها ، ومعنى بالناس يثيب الأخيار ويعاقب الأشرار . والطقوس أيضاً لم ترتب إلا لتدبير حياة الناس في مختلف الظروف ، وأضيفت للدين كي يؤديها الشعب طواعية أو كي تكون علامة خارجية عليه ، ورجال الدين ضروريون للجمهور كي يلقنوه تعليماً متناسباً مع فهمه ، أما المعجزات فهي عند الجمهور مصنوعات او أحداث غير مألوفة مخالفة لما كون له من رأى في الطبيعة بالعادات المكتسبة وهي عنده أوضح بيان لقدرة الله وعنايته ، والحقيقة أن حدثاً مخالفاً للطبيعة لا يقع أبداً ، لأن نظامها سرمدي ثابت . وما من شك في أنه من اليسير أن نعين بالمبادئ الطبيعية المعروفة علة كثير من الوقائع المدعوة بالمعجزات فهي لا تفيد في الغرض المرجو منها ([٢٠]) . إن سبينوزا هو الديكارتي الوحيد الذي استطاع أن يطبق المنهج الديكارتي تطبيقاً جذرياً في المجالات التي استبعدها ديكارت من منهجه خاصة في مجال الدين ، وأعني الكتب المقدسة والكنيسة والعقائد والتاريخ المقدس لذلك كانت هناك محاولات عدة لاغتياله في حين أن ديكارت كان صديقاً لرجال الدين الذين كانوا يجدون في منهجه دعامة للدين ونصرة للعقائد ([٢١]) .

يعود سبينوزا إلى موقف هوبز في الدين فيذهب إلى أن السلطة هي الحاكمة في الدين وهي حاميته ، وأن حقها في ذلك مطلق ، وإلا تفرق الرأي بتفرق العقول والأهواء ، واختل النظام العام ولا يكتسب الدين قوة القانون إلا بإرادة السلطة ، من حيث أن ليس للعقل من حق في حال الطبيعة أكثر مما للشهوة والقوة ، وأن مظاهر العبادة يجب أن تعين تبعاً لأمن الدولة وفائدتها ، والولاء للدولة أرفع صور التقوى ، إذ لو زالت الدولة لما بقي خير ما ، ونجاة الشعب القاعدة الكبرى لجميع القوانين المدنية والدينية ولم يكن حق السلطة موضع نزاع قط عند العبرانيين وكان ملوكهم يعلمونهم الدين ، ولكن الحال اختلف عند المسيحيين فقد قام بتعليم الدين فيهم أفراد ، واعتادوا زمناً طويلا الاجتماع في كنائسهم بالرغم من إرادة حكوماتهم ؛ ولما أخذت المسيحية تدخل في الدولة ظل رجال الدين يعلمونها كما وضعوها حتى للأباطرة فكسبوا الاعتراف لأئمتها بصفة وكلاء الله ([٢٢]) .

تناول كتاب سبينوزا عن الاخلاق ثلاثة امور متميزة فهو يبدأ بالميتافيزيقا ، ثم يمضي الى سيكولوجية الانفعالات ، والارادة ، وأخيراً يضع اخلاقاً مؤسسة على ما تقدم من ميتافيزيقا وعلم نفس ، والميتافيزيقا تعديل لديكارت ، وعلم النفس يذكرنا بهوبز ، والعلاقة بين سبينوزا وديكارت ليست بعيدة الشبه عن العلاقة بين افلوطين وافلاطون لقد كان ديكارت رجلا متعدد الجوانب ، مليئاً بالشغف العقلي ، ولكنه لم يكن مثقلاً كثيراً بالجدية الاخلاقية ومع انه قد أخترع ادلة استهدف بها دعم المعتقدات الدينية التقليدية ، فقد كان في وسع الشكاك أن يستخدموه ومع ان سبينوزا لم يكن بغير اهتمامات علمية بل وكتب رسالة عن الطيف ، فانه كان معنياً أساساً بالدين والفضيلة وقد تقبل ديكارت ومعاصريه فيزياء مادية وحتمية وسعى داخل هذا الاطار ليجد مكانا للتقوى ولحياة مكرسة لله ، وكانت محاولته رائعة وتثير الاعجاب حتى عند أولئك الذين لا يظنونها ناجحة (٢٣) . إن الواحدية الميتافيزيقية عند سبينوزا ، كما تدعى على نحو ملائم ، تقدم إلينا نظاماً مغلقاً موحداً يكون فيه الكون بأسره بكل تعقيداته تجلياً لواقع واحد أحد ولهذه الوحدة عدد غير محدود من الصفات ، وهي كما يقول سبينوزا ، يمكن تصورها أحياناً بوصفها نماذج الامتداد الفيزيقية ، وبوصفها نماذج الفكر أو النماذج العقلية أحياناً أخرى ولكن هذه الظواهر المتعددة هي في الواقع مجرد مظاهر للجوهر الواحد الاحد ذي الإرادة الحرة والشامل كل شيء (٢٤) . ان السؤال الرئيسي إذاً في فلسفة سبينوزا هو ما دام ديكارت أثبت وجود الله ، وأثبت وجود الفكر في كل شيء وما دام العلم قادراً على تفسير كل شيء في الكون ، فأين وكيف هي صلة الفكر الكلي العقل الكلي بالأشياء ولذلك انطلق سبينوزا من إنكار أي تمييز بين الروح والجسد المادة والفكر والقاتون ، وأقر أن الله موجود ولا حدود له مطلق وهو كامل بذاته وشامل ، لذلك لا يمكن أن لا يشمل كل شيء ، لأن أي موجود لا يمكنه أن يوجد لولا وجود الله (٢٥) .

ان مذهب سبينوزا الميتافيزيقي هو من النمط الذي افتتحه بارمنيدس فثمة جوهر واحد فقط ، (الله أو الطبيعة) وليس ثمة شيء متناه موجود بذاته وقد سلم ديكارت بثلاث جواهر الله والذهن والمادة والحق أنه حتى عند ديكارت كان الله أشد جوهرية من الذهن والمادة ولكن باستثناء ما يتعلق بما لله من قدرة عليها فالذهن والمادة جوهران مستقلان ، يعرفان على التوالي بصفتي الفكر والامتداد ، ولن يكون لدى سبينوزا شيء من هذا فعنده أن الفكر والامتداد معاً من صفات الله ، ولدى الله كذلك عدد لامتناه من الصفات الاخرى مادام يلزم له في كل حالة ان يكون لا متناهيا ولكن هذه الصفات الاخرى مجهولة لنا والنفوس الفردية والاجزاء المنفصلة للمادة هي عند سبينوزا نعتية هي ليست أشياء ، بل محض مظاهر للكائن الالهي ، ولا يمكن ان يكون هناك شيء من قبيل الخلود الشخصي كما يعتقد المسيحيون ولكن فقد ذلك النوع اللاشخصي الذي يمثل في أن

يغدو شيئاً فشيئاً واحداً مع الله ، والاشياء المتناهية تنعرف بحدودها ، المادية او المنطقية ، أي بما ليس هي : فكل تحديد نفي ولا يمكن أن يكون هنالك الا كائن واحد يكون إيجابياً على التمام ويجب أن يكون لا متناهياً على الاطلاق ومن ثم انقاد سبينوزا الى حلول تام ومطلق (٢٦) . وبدل أن يكون كل شيء من الله ، صار كل شيء في الله عند سبينوزا شأنه شأن واحدية وحدة الوجود عند سابقيه ، لكن بدلالات فلسفية وعلمية معاصرة ، لا بدلالات صوفية (٢٧) .

ان كل شيء تبعاً لسبينوزا تحكمه ضرورة منطقية مطلقة وليس ثمة شيء من قبيل الارادة الحرة في المجال العقلي أو الصدفة في العالم المادي فكل شيء يحدث فهو تجل لطبيعة الله التي لايمكن فهمها ومن المستحيل منطقياً أن تكون الاحداث غير ما هي عليه ويؤدي هذا الى صعوبات بصدد الخطيئة لم يبطئ النقاد في التنبيه اليها فواحد منهم بعد ان لاحظ أن كل شيء ، تبعاً لسبينوزا قد قضى به الله وأنه من ثم خير يتساءل مستنكرا : هل كان خيراً أن يأكل آدم التفاحة ؟ ويجيب سبينوزا بأن ما كان ايجابياً في تلك الافعال فهو خير وفقط ما كان سلبياً فهو شر ، ولكن السلب يوجد فقط من وجهة نظر المخلوقات المتناهية وفي الله وهو وحده الحقيقي على التمام ، ليس ثمة سلب ، ومن ثم فالشر فيما يبدو لنا خطايا لا يوجد عندما ينظر اليها كأجزاء من كل . هذه النظرية وان كان قد أخذ بها معظم الصوفية على هذه الصورة أو تلك ، لايمكن بوضوح التوفيق بينها وبين النظرية التقليدية للخطيئة واللعنة وهي مرتبطة برفض سبينوزا رفضاً تاماً للإرادة الحرة . وبالرغم من أن سبينوزا لم يكن جدلياً بالمرة فقد كان أشرف من أن يخفي آراءه ، مهما صدمت معاصريه ومن ثم فمقت تعاليمه لا يدهشنا (٢٨) .

أن لغة الإنجيل قد جاءت وكلها مجازات واستعارات وهذا التزويق البياني معتمد فيه ، أولاً بسبب النزعة الشرقية إلى الأدب الرفيع وميله إلى تزويق اللفظ ، وثانياً لأن الأنبياء والقديسين لابد لكي يحملوا الناس على اعتناق مذاهبهم أن يثيروا الخيال ، ولذا تراهم يبذلون وسعهم لطبع انفسهم وكتبهم بطابع الشعب الذي يعيشون فيه (فقد كتب كل كتاب منزل لشعب بعينه أولاً ، وللجنس البشري كله ثانياً ، فيجب إذن أن يلائم ما فيه عقلية الشعب ما وجد السبيل إلى ذلك) إن الكتب المنزلة لا تفسر الأشياء بأسبابها ، ولكنها ترويها بأسلوب يؤثر في نفوس الناس وخاصة جمهورهم ، لكي تحملهم على التفاني في العقيدة فليس موضوع الكتاب المنزل إقناع العقل ، بل جذب الخيال والسيطرة عليه ولهذا يكثر فيه ذكر المعجزات يضن الدهماء أن قوة الله وسلطانه لا يتجليان في وضوح إل بالحوادث الخارقة التي تناقض الفكرة التي كونوها عن الطبيعة إنهم يحسبون أن الله يكون معطلاً مادامت الطبيعة تعمل في نظامها المعهود وعكس ذلك صحيح أيضاً ، أي أن قوة الطبيعة والأسباب الطبيعية هي التي تتعطل مادام الله

فعالاً ، وهكذا هم يتخيلون قوتين منفصلة إحداهما عن الأخرى : قوة الله وقوة الطبيعة وهنا نلمس اساس فلسفة إسبينوزا وهو أن الله وسير الطبيعة شيء واحد ويميل الإنسان إلى العقيدة بأن الله يحطم النظام الطبيعي للحوادث من أجلهم فترى اليهود يعللون إطالة النهار وتأخير غروب الشمس بأنها معجزة تثبت أنهم شعب الله المختار ، ولو قال موسى لقومه إن البحر الأحمر قد انحسرت مياهه بسبب الرياح الشرقية لما كان لقوله أثر في نفوسهم ، ولعل منزلة الأنبياء والقديسين التي يمتازون بها عن الفلاسفة والعلماء ترجع إلى حد كبير إلى أسلوبهم البياني الساحر الذي ينطقون به مدفوعين بما تكنه صدورهم من حماسة لمذهبهم (٢٩) .

لقد تم تفسير التعاليم الحقيقية للكتاب المقدس بحيث تصبح متحدة مع الالتزام بالقانون والوطنية وعن طريق حصر سلطة الدين في الاخلاق ، فقد حرر إسبينوزا العقل من أخطار الخرافة دون أن يحطم النتائج المقيدة للأيمان . إن العقل والوحي يتفقان من جهة مضمون الأخلاق أو الدين ، وأيضاً فيما يخص المعنى الذي يستقل به كل منهما عن الاخر والمعنى الذي به يرتبطان بعضهما ببعض . إن العهد الكلي الذي يحل محل العهد الخاص بين الله واليهود وعن طريقه تكون لدينا معرفة فطرية بالله من حيث إنه مصدر الأخلاق هو التجلي الديني لهذه الأفكار الفطرية التي يستنبط منها العقل مبادئ الأخلاق وأخيراً يمد الوحي وحدة الإنسان بالدليل على أن الخلاص يقوم على طاعة هذه المبادئ ولان مبادئ الأخلاق يتم التعبير عنها بصورة أكثر كفاية . وفقاً لحجة إسبينوزا السياسية في قوانين نظام الحكم الحكم الافضل ، فإن الدين يقدم في واقع الأمر برهاناً على التقوى تكمن بصورة دقيقة في طاعة النظام السياسي الصحيح (٣٠) . ففي شرح سبينوزا لنصوص التوراة تدل الصور القوية التي يلفت النظر الى كثرتها فيها (النفس ، ميتولوجيا الملائكة ، التجليات الالهية) أن موسى والانبياء يدنون في نظره بسلطانهم على العامي لقوة خيالهم ، ولكنهم لا يتعدون مضمار الحواس ، ولا يبلغون الى أي معرفة واضحة ومتميزة بالإلهيات فمما يتنافى تنافياً مباشراً مع طبيعة الله أن يعطي شرائع جزئية لها ابتداء في الزمن ولا تتوجه إلا إلى رجل واحد أو شعب واحد فمن طبيعة الله لايمكن أن تنجم سوى نتائج أزلية فتحريم الاكل من الثمرة على آدم لم يكن شريعة إلا بالإضافة الى آدم وحده وبسبب قصور معرفته لهذا أيضاً تجلى الله لموسى مشرعاً وكأنه عاهل من العواهل . ولو كان الله كلمه مباشرة لكان فهم الوصايا العشر لا على انها شريعة بل على أنها حقيقة أزلية (٣١) .

ويرى إسبينوزا أن اول سبيل لحسن التفاهم هو أن يفهم المسيح فهماً صحيحاً ، فهو ينكر بتاتاً تاليه المسيح ويصير على انه قبل كل شيء إنسان من البشر إن حكمة الله الخالدة قد تجلت في الاشياء كلها ، ولكنها تمثلت في عقل الإنسان بصفة خاصة وفي يسوع المسيح أخص فلو

تخلصت هذه الشخصية الممتازة من كل ما يشوبها من خرافات لا تؤدي إلا إلى الخصومة والنزاع ، لجذبت حولها الناس جميعاً ، ولكانت عنواناً تتحد باسمه الدنيا بعد أن مزقتها حروب السيف والقلم وتعيش في طمأنينة وسلام (٣٢) .

وينهض إسبينوزا على انه ليس للدين الحقيقي سلطة إلا على الفعل ؛ والدين الذي يزعم أنه يمارس نظرية هو خرافة إن غاية الفلسفة ليست شيئاً سوى الحقيقة ؛ أما غاية الايمان رأينا بغزارة ، فهي ليست سوى الطاعة والتقوى . ولأن الطاعة تعني طاعة قانون الله فإن مضمون الطاعة يحدده تعريف التقوى فتتطلب التقوى قبولاً لعدد قليل من قضايا نظرية مثل إن هناك إلهاً قادراً موجوداً يتوقف عليه خلاصنا ، وتكمن الفضيلة الحقيقية تماماً في حب الله والجار ويعبر عن حب الله عن طريق حب المرء لجاره وعن طريق الامتثال للأشكال العامة للعبادة وحب المرء لجاره يعني أن يحترم حقوقه ولما كانت حقوقه يحددها قانون وضعي فإن التقوى لا تتطلب فقط أن نطيع قوانين الدولة ، وإنما تكمن في هذه الطاعة (٣٣) .

يرى سبينوزا إنه لو فسر الناس الإنجيل على هذا الأساس لما وجدوا فيه شيئاً يناقض العقل ، أما إذا تمسكوا بحرفيته فهم لاشك مصادفون كثيراً من الأخطاء والمتناقضات ، أما التفسير الفلسفي فيكشف فيه وراء أستار البيان والشعر فكراً عميقاً ويعتبر سبينوزا اليهودية والمسيحية ديناً واحداً فلا فرق بين هذه وتلك على شرط ان يستل الكره من صدور الدهماء ، وأن يستخرج التفسير الفلسفي لب العقيدتين المتنافستين كم ادهشني أن أرى قوماً يفاخرون بتعاليم الديانة المسيحية وأعني بها الحب والسعادة والسلام والعدل والإحسان غلى الناس جميعاً يقاتل بعضهم بعضاً وفي نفوسهم كل هذا الغل حتى اصبح الكره دون ما يعلمون من فضائل هو المقياس الصحيح لعقيدتهم ويعتقد سبينوزا أن اليهود لم يحتفظوا ببقائهم إلا بسبب اضطهاد المسيحية لهم ، أكسبتهم عزلتهم تماسكاً وعملاً على استمرار وجودهم ، ولو لم ينبذ المسيحيون اليهود لخالط هؤلاء شعوب أوربا وانمحوا فيها ، وليس ثمت ما يبرر التنافر والتناكر بين المسيحيين واليهود إلا التعصب الذميم (٣٤) .

يشير سبينوزا في الرسالة اللاهوتية السياسية الى ما بين الحياة الازلية القائمة على أساس معارف واضحة ومتميزة ، وطرق الخلاص التي تقول بها الاديان من تضاد ؛ وهو يخلع عن طريق الخلاص هذه قيمة يساويها على ما يظهر بالقيمة التي كشفت له عنها الفلسفة . فالمؤمن سيكتب له الخلاص مثل الفيلسوف فلم قامت إذن تلك الجلبة التي أثارتها ، من لحظة صدورها الرسالة المشهورة ؟ آية ذلك أن سبينوزا يعزل ويفصل بكل ما في الكلمة من معنى بين شيئين تجمع بينهما الأديان تعليم الحقيقة وقواعد السلوك الواجب الاتباع . وبالفعل ترى الأديان

في كتبها المقدسة لا مجموعة من الوصايا فحسب ، بل تنزيلاً بصدد طبيعة الله وعلائقه بالعالم وبالإنسان ، تنزيلاً مصدره الله نفسه : من هنا رأى النور ، الى جانب الدين الذي يأمر بالتقى وبالمحبة بين البشر ، لاهوت يصور لنا بالاستناد الى السلطة المزعومة للوحي الإلهي في الكتب ، إلهاً عرضة للانفعالات كافة ، للندامة ، والغيرة ، والغضب ، والرحمة ([٣٥]) . أن إيمان إسبينوزا إيمان صوفي يقوم على الأمل ، ويختلف عن الإيمان التقليدي ، إيمان العقائد الجاهزة أو المفروضة التي تتطلب من الإنسان الإيمان بها ، وأعتبر رويس أن هذا الإيمان نتيجة للطرد والحرمان الذي عانى منه إسبينوزا ولحياة العزلة التي فرضت عليه ([٣٦]) .

أن التفريق بين قيمة النصوص التوراتية أو الإنجيلية وبين قيمة التعاليم التي تحويها كان على أية حال مألوفاً تماماً كما رأينا في الأوساط الدينية التي كان سبينوزا يتعاطف معها ؛ ففي جميع تلك الأوساط كانت تدب بكلمة واحدة تلك الروح السوسينية التي تريد تطهير الدين من كل تعليم لاهوتي ولا تسلم بغير التعاليم الموافقة للنور الطبيعي ؛ وكانت تجد على أية حال ، في الكتاب المقدس نفسه كثرة من المقاطع التي تعزز فيها الثقة في ما تذهب اليه ([٣٧]) . إن سبينوزا لا يبني شيئاً وانما يجد على مرمى من ناظريه دين خلاص لا يقوم فيه الايمان وهو طريق الخلاص على فكرة الله وعلى ما يستنتج منها ، وانما على الاعتقاد بأن طاعة أوامر الله كما لو أنه ملك الملوك يمكن أن تكون سبيلنا الى الخلاص وهو لا يماري إطلاقاً في قيمة هذا الايمان ففي نهاية الاخلاق يبرهن أن "الدين" ليس مرتبطاً بمعرفة الحياة الأزلية كما تقررها فلسفته حتى ولو كنا لا نعلم أن نفسنا أزلية لما أمسكنا عن اعتبار الورع والدين وبكلمة واحدة كل ما يتصل ببسالة النفس وكرمها هي الموضوعات الاولى للحياة الانسانية وتذهب الرسالة اللاهوتية السياسية الى ابعد من ذلك بكثير ، إذ تعلن أن الخلاص ممكن حتى بدون معرفة الضرب الثاني عن طريق المسلك العملي وحده : الطاعة ([٣٨]) .

نظرية الايمان التي تتفق أتم الاتفاق مع ما كان سبينوزا ينظره فيما حوله هل تتمشى أيضاً مع مجمل فلسفته ؟ يلاحظ (ف . روه ١٨٦١-١٩٠٩م) أن العقل البشري مرغم بسبب لا تناهي المسافة التي تفصله عن العقل الالهي على التسليم بوجود طرق خلاص لا تقع في متناول فهمه ؛ ويلاحظ أن الخلاص حتى في كتاب الأخلاق يمكن لا في المعرفة ، وانما في تأثر الفرح وتأثر الغبطة المرتبطين بها واللذين يمكن تصورهما مرتبطين بشروط أخرى ولنضف الى ذلك أن سبينوزا كان يعاين فيما حوله تجربة حياة دينية مستقلة عن الفلسفة ؛ والحال أنه اذا كان انتقد التجربة كمصدر للمعقولية فإنه م أنكر قط قيمتها كمصدر لليقين : وكل غاية الرسالة اللاهوتية السياسية أن تفرق ما هو إيجابي في هذه التجربة عما أضافته اليها الأخطاء البشرية وهي تفرقة

تتم بفضل الأفكار المطابقة التي أعطتها الفلسفة عن الله : فالسبينوزية تتساوق كامل التساوق مع قيمة التجربة الدينية (٣٩) .

((المبحث الثالث))

السياسة عند باروخ سبينوزا

إسبينوزا هو الفيلسوف الأول الذي كتب دفاعاً منظماً عن الديمقراطية ويبدو ذلك في كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة" ويظهر الدفاع بوصفه نتيجة ضرورية لموقف إسبينوزا الميتافيزيقي ورفضه الواضح الجلي للفلسفة السياسية التقليدية والبيان الأكثر تفصيلاً للأسس الميتافيزيقية للتفكير السياسي عنده متضمن في كتابه "الأخلاق" الذي هو العمل الأساسي لإسبينوزا وهو دراسة للبناء الأساسي للحقيقة الواقعية ، أو الجوهر وبالتالي فهو دراسة للعلاقة بين الوجود البشري والنظام الأبدي ويظهر رفض إسبينوزا للفلسفة السياسية التقليدية بصورة أكثر جلاء في الصفحات الافتتاحية من كتابه "الرسالة السياسية" التي قادتها إلى أن يحل ما ينظر إليه على أنه التصورات الخيالية وعديمة الفائدة للفلاسفة التقليديين ، نقول يحل محلها تحليلات واقعية وعملية لحياة سياسية تميز بها رجال من أمثال ماكيافللي بوجه خاص (٤٠) .

لقد تناول سبينوزا السياسة من خلال كتبه "رسالة في السياسة اللاهوتية" و "رسالة في السياسة" والاولى جمع غريب بين نقد الانجيل وبين النظرية السياسية ، والثانية تتناول النظرية السياسية فقط ، ففي نقد الانجيل سبق "سبينوزا" الآراء الحديثة في بعض جوانبها ، وبخاصة في تعيين تواريخ للأجزاء المختلفة في العهد القديم ، أحدث كثيراً من التواريخ التي تحددت بالعرف وهو يحاول طوال الكتاب أن يبين أن الكتب المقدسة يمكن تأويلها بحيث تنسجم مع لاهوت ليبرالي (٤١) .

تأثر إسبيتوزا وهو في سياق عرضه لنظريته السياسية بفكرة العقد الاجتماعي التي نادى به معاصره هوبز والتي ظهرت بعد ذلك في الفلسفات السياسية لدى لوك وروسو ، وبديهي أن فكرة العقد الاجتماعي تستتبع التفكير في تصورات أخرى متصلة بها مثل فكرة الحقوق الطبيعية وفكرة القانون الطبيعي وفكرة القوة الطبيعية كما تستتبع العودة الى دراسة حالة الطبيعة الاولى وما ينتج عنها عن طريق التعاقد من إقامة الدولة ، ففكرة الحق الطبيعي هي نفس قوانين الطبيعة أو قواعدها التي تحدث الاشياء وفقاً لها وعلى ذلك فكل ما يفعله الانسان وفقاً لقوانين الطبيعة يفعله بحق طبيعي كامل ويكون له من الحق على الطبيعة بقدر ماله من القوة ومعنى هذا أن سبينوزا يربط بين فكرة الحق الطبيعي وفكرة القوة الطبيعية ، الحق الطبيعي لابد أن يكون واحداً عند جميع الافراد لأنه من نتاج الطبيعة ذاتها ولكن إسبينوزا يلاحظ أن الرغبة والقوة تتحكمان في

الحق الطبيعي ، وأن العقل يبدأ دوره حين ينتقل الانسان من دائرة الحالة الطبيعية الاولى الى الحالة المتمدنة ، والقانون الطبيعي عند إسبينوزا هو ما تفرضه الطبيعة سواء أكان متوافقاً مع القانون الالهي أو مع القانون الوضعي (٤٢) .

نظرية "سبينوزا" السياسية مستمدة أساساً ، من هوبز رغم الاختلاف الضخم في المزاج بين الرجلين . فهو يأخذ بأنه في حالة الطبيعة ليس ثمة صواب أو خطأ ، لان الخطأ يتمثل في عدم أطاعه القانون . وهو يسلم بأن الملك لايمكن أن يخطئ ، ويتفق مع هوبز في أن الكنيسة ينبغي أن تخضع للدولة خضوعاً تاماً ، وهو ضد كل ثورة ، حتى على حكومة سيئة ، ويستشهد بالاضطرابات في انجلترا كدليل على الضرر الذي ينجم عن المقاومة العنيفة للسلطة . ولكنه يخالف هوبز في ظنه أن الديمقراطية هي الشكل "الطبيعي للغاية" للحكومة ، وهو يخالف أيضاً حين يذهب الى القول بأن المواطنين ينبغي ألا يتخلوا عن جميع حقوقهم للملك . وهو يرى بوجه خاص أهمية حرية الرأي ولست أعرف تماماً كيف يوفق بين هذا وبين الرأي القائل بأن المسائل الدينية ينبغي أن تحسم فيها الدولة ، وأضن أنه حين يقول هذا يعني أنها ينبغي أن تحسم فيها الدولة أكثر مما تحسم الكنيسة ، وفي هولندا كانت الدولة أشد تسامحاً بدرجة أكبر من الكنيسة(٤٣).

تميزت الحالة الطبيعية الاولى للإنسان باتجاهه نحو اطلاق غرائزه واهوائه ورغباته فاستخدم حقه الطبيعي في حفظ بقاء ذاته والقضاء على كل ما يهددها فقد تميز الانسان الاول بتمتعه بالحرية ولكن حريته تلك كانت حرية أنانية تدور حول ذاته وتنطلق من صميم ميوله ورغباته ، فقد جاهد كل انسان في سبيل بقاء ذاته وتعددت الطرق والوسائل في تحقيق هذه الغاية طبقاً للاختلافات البدنية بين الناس وكان نضاله في سبيل المحافظة على الذات وتحقيق الرغبات ينتج عنه خوف دائم من الخطر والمجهول ومنافسة مستمرة بين الانسان والاخرين بغية تحقيق الرغبات وتنفيذ الشهوات والنزوات فقد تمتع الانسان الاول إذن بحق السيادة لم تكن ثمة سيادة عامة يخضع لها ، أو حكومة تجمع بين يديها كل القوى في شكل سيادة كلية يطيعها الجميع فسادت الفوضى وبات كل فرد لا يأمن صباحه وامسه ، وظهرت بادرة للتخلص من هذا النمط المخيف من الحياة الى نمط يحقق للإنسان الطمأنينة والأمن والسلام وذلك حينما أدرك الانسان انه لابد ان يتفق مع الاخرين حتى لتكون حياته متوقفة حياته على قوة ورغبة الافراد بقدر ما تتوقف على قوة وإرادة المجتمع كله (٤٤) . أن كل ما يفعله الموجود تبعاً لقوانين الطبيعة فهو يفعله بحق مطلق، على أن من الحق الأنفع للناس أن يعيشوا طبقاً لقوانين العقل . وليس من إنسان إلا ويريد أن يعيش آمناً من الخوف ، وإذا لم يتعاون الناس كانت حياتهم بائسة لهذه

الاسباب تاقوا للاتحاد ونزل كل إلى الجماعة عما له من حق طبيعي على جميع الأشياء فصار للسلطة العليا الحق المطلق في الأمر بكل ما تريد ، وصارت الطاعة واجبة بحكم الميثاق المعقود وبحكم العقل الذي يرى في الطاعة أهون الضررين وبذا تنشأ العدالة أي علاقة خارجية بين السلطة والشعب يمثلها القانون الذي يأمر بأفعال معينة ويحظر أفعالا معينة على أنه لا تجب الطاعة إلا للقانون النافع إذ كان أساس الاتحاد المنفعة العامة فللشعب أن يقدر الأوامر والنواهي ، وأن ينقد السلطة ، بل أن يثور عليها وهذا فارق هام بين سبينوزا وبين هوبز ، وثمة فارق آخر أن هوبز يدعو للحكم الاستبدادي ، ويدعو سبينوزا للحكم الديمقراطي ويقول "كلما أتسعت مشاركة الشعب في الحكم قوى التحاب والاتحاد (٤٥) .

وباضطرار الانسان الى الاتحاد مع غيره تقوم الحياة الاجتماعية المنتظمة على هيئة دولة مدنية ويتم ذلك عن طريق الاتفاق أو التعاقد ، وغاية التعاقد إقامة الدولة التي يكسب فيها الجميع أكثر مما يخسرون ومعنى هذا أن فقدان الانسان لحقوقه الطبيعية في حالة الطبيعة الاولى وخضوعه لعنصر السيادة في الدولة وقبوله للتعاقد الاجتماعي يكون أقل ضررا واقل خسارة مما لو ظل يحيا في دائرة حياته الاولى ، وغرض الدولة ليس هو الحكم والاكراه بالخوف والاجبار والقسر على الطاعة ، ولكن عكس ذلك هو الصحيح ذلك أن غرض الدولة الاسمى إنما يتمثل في تحرير كل فرد من الخوف وتحقيق أمنه وطمأنينته ، وتأكيد حقه الطبيعي في الوجود والعمل ، وتتجسد سيادة الدولة في تلك القوى العظمى التي تكفي لتحقيق السيطرة على الافراد سواء بالأمل أو الرهبة حتى يطيع هؤلاء أوامرها ونستنتج من ذلك أن سيادة الدولة لا تكون عظمى الا من خلال تدعيمها بالقوى الموجودة و الافراد الذين يكونون المجتمع (٤٦) .

كان سبينوزا يكتب رسالته السياسية التي يدافع بها عن الديمقراطية في نفس العصر الذي كان فيه هوبز يمجد الملكية المطلقة في انجلترا ويقاوم ثورة الشعب الإنجليزي على ملكيه وقد جاءت فلسفة سبينوزا السياسية من القوة بحيث اصبحت ينبوعاً دافقاً ظلت تستقي منه الحركة الديمقراطية حتى بلغت أوجها على يدي روسو ورجال الثورة الفرنسية ، وقد ذهب سبينوزا إلى أن الناس كانوا قبل نشأة المجتمع يعيشون فوضى لا ينظمهم قانون ولا يسودهم نظام ، وكانت القوة عندهم هي الحق ، فمن استطاع أن يظفر بشيء فهو حق له ، وإذن فلم تكن لديهم فكرة الصواب والخطأ او العدل والظلم ولا يمكن لشيء في الحالة الطبيعية أن يسمى خيراً أو شراً لأن كل إنسان في تلك الحالة لا ينظر إلا إلى مصلحته ، ولا يكون مسئولاً امام احد غير نفسه ، ولا يحده قانون ، وإذن فيستحيل أن تنشأ فكرة الخطيئة في الحالة الطبيعية ، لأنها فكرة لا تكون إلا في الحياة المدنية ، حيث يتقرر بإجماع الرأي ما هو الخير وما هو الشر ، وحيث يكون الفرد مسئولاً امام الدولة

(٤٧) . أي أن المواطن أياً كان يجب ان يعتمد بفضل التعاقد الاجتماعي على الدولة وليس على نفسه ، وعليه أن ينفذ أوامرها ، وليس له الحق في أن يقرر ما هو ملائم أو غير ملائم وما هو عادل وما هو غير عادل بل على العكس من ذلك باعتباره عضواً في جسد الدولة أن يقبل توجيه عقل وإرادة الدولة له ، ولا يعني هذا أنه ليس حراً ، إذ أن عقل وإرادة الدولة كذلك بالنسبة إلى كل فرد فيها (٤٨) .

ونستطيع أن تلمس الحالة الطبيعية الأولى في سلوك الدول الآن بعضها مع بعض ، حيث لا يربطهما ما يربط أفراد المجتمع الواحد ؛ إذ كل منها تسعى لنفعها بغض النظر عن الأمم الأخرى ، وليس بينها أخلاق مرسومة تحدد تصرفاتها ، لأن الأخلاق لا تكون إلا حيث توجد سلطة معترف بها ، فإن استطاعت دولة أن تظفر بشيء من القوة كان حقاً لها غير منازع وما ذكرناه عن الدول صحيح كذلك بالنسبة لأنواع الحيوان ، فهي متنافسة متنازعة لا تعرف معنى للتعاون والإيثار ن وكل نوع يحاول أن ينتفع على حساب الأنواع الأخرى ، وذلك لأنه ليس بينها أخلاق مقررة أو نظام للتعامل معترف به تقوم على صيانته هيئة مطاعة (٤٩) .

هذا التنافر والتنافس الذي تراه بين الانواع المختلفة كما تراه بين الدول كان يسود الأفراد قبل أن يتعاهدوا على تكوين مجتمع تصان فيه مصالح الأفراد ، ولا يكون الحق فيه مرتكزاً على القوة ، وقد دفع الناس إلى تكوين المجتمع شعورهم بالحاجة الى التعاون والتآزر على درء الخطر ، إذ لم يستطع الفرد وحده أن يدفع عن نفسه كل ما كان يتهدده من أخطار ، وأن يحصل في الوقت نفسه ضرورات الحياة ، فلكي يهون الإنسان على نفسه أمر الدفاع عن النفس حتى يتفرغ لشؤون الحياة ، مال بطبعه إلى النظام الاجتماعي ، ومن هذا ترى أن الناس ليسوا مهيئين بطبيعتهم لاحتمال النظام الاجتماعي ، والاجتماع يغذي ويقوي الغرائز الاجتماعية شيئاً فشيئاً فلا يولد الإنسان لكي يكون مواطناً أي فرداً من مجتمع ، ولكنه يجب أن يراض على ذلك ، فمعظم الناس تحتبس في صدورها ثورة على التقاليد والقوانين لأن الغرائز الفردية أقوى وأرسخ من الغرائز الاجتماعية ، ولذا كانت هذه الأخيرة في حاجة إلى مران وتدريب ويزعم سبينوزا أن ليس الإنسان خيراً بطبيعته كما ذهب روسو ولكن الاجتماع هو الذي يولد التراحم والتعاطف ، فلا يسع الإنسان إلا أن يعطف على ذويه وعشيرته ثم على امته ثم على الانسانية جميعاً (٥٠) .

أن تمكن الانسان بواسطة العقل من أن يقيم الدولة ، وذلك العقل الكلي العام ، وتمكنه بواسطة تخيله عن ارادته الفردة الأنانية من أن يقيم الارادة الكلية العامة ولكن لنا أن نسأل ألا توجد دولة تتعارض مع العقل بالمعنى السياسي ؟ يجيب إسبينوزا بالنفي ويرى أن الدولة عقل أعظم ، وكما أن العقل يحرر الانسان فإن عقل الدولة يحرر المجتمع ، وبالمثل فكما أن اتباع

الانسان لعقله وعدم معارضته له يحقق له الأمن والطمأنينة والحرية ، فكذلك يكون اتباع الأفراد للعقل الكلي للدولة ، فالدولة العاقلة تحقق للجميع الأمن والطمأنينة والحرية ويرى إسبينوزا أن علاج خطأ الدولة التي ابتعدت عن العقل إنما يتم بواسطة الثورة ، والثورة حينئذ يكون لها دعامة قانونية لأنها تطيح بالحكومات التي تفشل في إبعاد الخوف وتحقيق الحرية للمواطنين وتأكيد الحياة المطمئنة لهم (٥١) .

وقد رضى الإنسان حينما قبل أن يكون عضواً في المجتمع أن يتنازل عن بعض قوته ، فلكل فرد أن يستعمل قوته في اكتساب مصالحه على شرط ألا يتعدى على حرية الآخرين التي يجب أن تكون مساوية لحريته ، وبذلك يكون الفرد قد أعطى للجماعة جزءاً من قوته الطبيعية في مقابل أن تمكنه الجماعة من استغلال ما بقى له من القوة إلى أقصى حد مستطاع دون أن يخشى على نفسه خطراً واعتداء ولكي يستطيع المجتمع أن يصون للأفراد ما تعهد لهم به من طمأنينة وأمن أوجد قانوناً يحدد تصرفات الناس ومعاملاتهم ، وقد اضطر المجتمع إلى وضع هذا القانون لأنه يعلم أن الناس مدفوعون في حياتهم بعواطفهم ، والعواطف وحدها عمياء لا تدري أين تسوق صاحبها بحيث ينتفع ولا يضر الآخرين ، فو كان الناس جميعاً مسوقين بالعقل لما كان للمجتمع حاجة إلى القانون ، فالقانون في الواقع بالنسبة إلى الأفراد بمثابة العقل من العواطف ، أو هو يجب أن يكون كذلك (٥٢) .

فكما ارتأى سبينوزا في الميتافيزيقا أن هناك حكمة مدبرة وعقلاً منظماً يكمن وراء الأشياء ، وعلى الفيلسوف أن يدرك ماوراء فوضى الاشياء الظاهرة من انسجام واتساق ، وكما ارتأى في الأخلاق أن الحكمة هي في ايجاد التعاون والنظام بين الأهواء المتضاربة والشهوات المتنافرة ، كذلك في السياسة أيضاً يرى ان أساس المجتمع نظام خفي كامن وراء نزعات الأفراد المتضاربة في الظاهر فالدولة الكاملة ينبغي ألا تحد من قوة الفرد إلا بمقدار ما تتقي به خطر هذا الفرد على بنائها وكيانها ، وهي في الوقت نفسه يجب ألا تنزع من الأفراد حرية إلا إذا أضافت إليهم اكبر مما انتزعت (٥٣) .لقد احتفظت ميتافيزيقا إسبينوزا العلمية إلى حد ما ، بذلك الجانب من التراث السياسي الكلاسيكي الذي تبعاً له يكمن النظام الأزلي أساساً تحت النظام البشري وينظمه ويصبح النظام الأزلي وفقاً للفهم الكلاسيكي في المتناول عن طريق تحليل هذا النظام البشري غير أن تحليل إسبينوزا الذي يتطابق مع قبوله إجراءات علمية حديثة يستلزم إهمالاً أولياً للنظام البشري حتى يصبح النظام الأزلي مرئياً تحاول ملاحظة الظواهر السياسية من حيث إنها تتميز عن النظام أن تستبعد تشويه المنظور البشري لأن الظواهر السياسية تسجل وتحلل بدقة مثل

ظواهر أي علم آخر وبالتالي فإن النظام البشري يستنبط من النظام الأزلي الذي يتم الكشف عنه علمياً (٥٤) .

ليس الغرض الأقصى من الدولة أن تسيطر على الأفراد ولا ان تكمهم بالمخاوف ولكن الغاية منها أن تحرر كل إنسان من الخوف حتى يستطيع ان يعيش ويعمل في أمن تام دون أن يضر نفسه أو يؤذي جاره . إني أكرر القول بأن ليست غاية الدولة أن تحول الكائنات العاقلة إلى حيوانات متوحشة أو آلات بل إن الغرض منها هو أن تمكن جسامهم وعقولهم من العمل في أمن ؛ غايتها أن تهيء للناس عيشاً يستمتعون فيه بعقول حرة ، حتى لا ينفقوا قوتهم في الكراهية والغضب والكيد وإساءة بعضهم إلى بعض إن غاية الدولة الحقيقية هي أن تكفل الحرية ، فالحرية هي غرض الدولة الأسمى لأنها يجب أن تعمل على الرقي والنمو والكمال ، والرقي إنما يعتمد على مقدرة الأفراد وكفايتهم بشرط أن تجد مجال العمل أمامها حراً طليقاً (٥٥) . إن دولة إسبينوزا تحول الانفعال إلى خادم للعقل عن طريق الفهم العقلي لطبيعة الإنسان الانفعالية والفلسفة هي السلطة العليا لكل البشر حتى إن تعاليمها ينبغي أن توضع في صورة تناسب العقل العام ، وليس من المبالغة أن نقول إن الغاية القصوى للدولة هي الفلسفة ويخبرنا عنوان صفحة "رسالة في اللاهوت والسياسة" أن "حرية التفلسف" ضرورية للمحافظة على الورع والسلام العام وحرية المواطن داخل الدولة الأفضل هي التجلي السياسي للحرية الفلسفية وثمة وحدة للمواطن وصاحب السيادة داخل الدولة وتعتمد هذه الوحدة على دساتير عقلية تجعل الحكام وكلاء الفلاسفة تماماً كما تكون المؤسسات الوجه العام للفلسفة وكما يرى إسبينوزا يجب أن يقاد الناس بدرجة يعتقدون أنهم ليسوا مقادين ، وإنما يعيشون عن طريق عقلهم الخاص ، وعن طريق رأيهم الحر الخاص (٥٦) .

ولكن ماذا يفعل الأفراد إن طغى الحكام وقيدوا حريتهم ونموهم ؟ يجيب سبينوزا عن ذلك بأن واجب الفرد هو طاعة القانون حتى ولو كان جائراً ظالماً مادامت السلطة الحاكمة لا تمنع الناس من حرية الكلام والنقد والاحتجاج واني أعترف بأن بعض النتائج السيئة قد ينشأ من مثل هذه الحرية ، ولكن أية مسالة قد اتبع فيها رأي حكيم فاستحال عليها أن تنتج السوء إن القوانين التي تلجم الأفواه وتحطم الأقلام تهدم نفسها بنفسها ؛ لأنه لن يلبث الناس امداً طويلاً على احترامهم للقوانين التي لا تجيز لهم أن ينقدوها ، كلما جاهدت الحكومة ان تنتقص من حرية الكلام كانت مقاومة الناس إياها اشد فقد جبل الناس بوجه عام على ألا يشتد قلقهم ويفرغ صبرهم من شيء بقدر ما يحدث ذلك عندما تعد الآراء التي يعتقدون أنها حق جرائم تعارض القانون

وعندئذ لا يعتبر الناس ان مقت القوانين ومقاومة الحكومة عار بل هو في هذه الحالة شرف عظيم (٥٧) .

فكلما قلت رقابة الدولة على العقل ازداد المواطنون والدولة صلاحاً ، ومن افدح الأخطار التي تهدد كيان المجتمع أن يمتد سلطان الحكومة من أجسام الناس وأعمالهم إلى نفوسهم وأفكارهم إذا ظفر الإنسان بهذه الحرية فلا يعنيه أي نوع من أنواع الحكومات يسود ، فلتكن ديمقراطية أو أرستقراطية أو أي لون آخر مادام كل فرد يربى ويراض على تفضيل حق الجماعة على منفعته الخاصة ، ولكن سبينوزا مع ذلك يميل إلى الديمقراطية ويمقت الملكية المستبدة قد يضن أن التجربة قد دلت على أن وضع السلطة كلها في رجل واحد يدعو إلى السلام وترابط الأفراد ، وقد يستدل على ذلك بأنه ليس بين الدول دولة لبثت أمداً طويلاً بغير تغير محسوس كما لبثت دولة الأتراك ، ومن جهة أخرى لم يكن بين الدول اقر أجلاً من الدول الشعبية أو الديمقراطية ، ول كثر العصيان في دولة كما كثر في هذه ولكن إن كانت البربرية والعبودية والذل تدعى سلاماً فليس أتعس للإنسان من السلام فلا شك أن العراك يكثر ويشتد عادة بين الآباء والأبناء منه بين السادة والعبيد ومع ذلك فليس من صالح الأسرة أن ينقلب حق الوالد إلى حق الملكية ، وألا يعد الأطفال اكثر من عبيد وإذن فوضع السلطة كلها في رجل واحد يؤدي الى العبودية ل إلى السلام (٥٨) .

عالج إسبينوزا أشكال الحكومات ومميزاتها ومساوئها في كتاب مقال في السياسة وذهب في هذا الصدد إلى رفض الشكل المونارکي رفضاً قاطعاً لأنه من المستحيل في نظره أن يمتلك إنسان واحد كل القوى ويكون في نفس الوقت القادر الوحيد على ممارستها ولقد اعتقد أن الشكل الديمقراطي هو أكثر الأشكال اقتراباً من الطبيعة وأكثرها توافقاً مع الحرية الفردية ، ورأى أن من يطبع هذا الشكل من أشكال الحكومات يكون حراً لأنه يعيش في ظل قوانين عقلية تحقق الخير العام للجميع وبوجه عام فإن إسبينوزا يرى أن هناك حكومات صالحة وحكومات طالحة ولكن لا توجد حكومات مثالية حتى من بين الصالح منها ، والحكومات تكون صالحة عنده بقدر ما تحقق لمواطنيها أعظم قدر من حفظ البقاء (٥٩) .

فالديمقراطية هي خير أنواع الحكومات ولكن الديمقراطية لا تخلو من عيب فادح ذلك أنها تميل إلى وضع السوقة في مراكز القوة ولكي نتقي هذا الخطر يجب أن نخصص الحكم لذوي الكفاية الممتازة والدراية الواسعة لأنه لو تحكم السوقة في الامر فلا بد أن تثور الطبقة الممتازة رافضة أن تذعن لمن هم أدنى منها وأوضع ، وقد تستطيع هذه الطبقة بذكائها وقدرتها أن تظفر بالسلطان رغم قلة عددها ومن هنا فيما اظن تتحول الديمقراطية إلى أرستقراطية ثم

تنقلب هذه إلى ملكية آخر الأمر ([٦٠]) . آمن إسبينوزا بالحرية ، وقرر أن هذه الحرية كانت موجودة في الحالة الطبيعية للإنسان في شكل تلقائي أناني يدور حول الذات المفردة لكل إنسان ، وهي أيضاً موجودة في حالة المجتمع المدني الذي نشأ عن طريق التعاقد ، ولكنها لا تتخذ الشكل السابق وإنما تتخذ طابعاً عقلياً وفكرياً بل إن من سمات الدولة الرئيسية تحقيق حرية الفكر والقول اي الحرية العقلية والتعبير عنها ونقله إلى الاخرين لا تتحقق إلا في ثنايا الدولة وأن الانجيل يترك للعقل مطلق الحرية ، لان الدين مخالف للتأمل والفلسفة بل إنهما يقفان في اتجاهين متباينين ، ويرى (رايت)* نحن لا نبلغ مرتبة الحرية في ثنايا الدولة المدنية الا من خلال العقل وأننا لا نستطيع أن نحرر أنفسنا إلا بالتفكير الواضح المتميز ، فالحرية صنو التفكير والتعقل ([٦١]) .

وهكذا ارتكزت فلسفة الحرية عند سبينوزا على العقل ، فالعقل الفردي يحرر الإنسان كما أن عقل الدولة يحرر المجتمع ، وكأن إسبينوزا يدعونا إلى ضرورة أن يتبع الانسان عقله وينأى عن الانفعالات والشهوات والرغبات ، فسياسة إسبينوزا إذا تنزع منزعاً أخلاقياً ويرى إسبينوزا بأن غاية الحكومة إنما تتمثل في تحقيق الحرية ، وقد يخالف الفرد الحاكم في تفكيره بل ومن واجبه أن يخالف كما يشاء ولكن ليس من حقه أن يفعل ما من شأنه أن يعكر صفو الأمن العام أو إشاعة الفوضى ، فسيادة الحرية إذن يجب ألا تتعارض مع القانون ، أو هي محدودة بالقانون ومن ثم فإن الدولة تتيح للجميع ممارسة الحرية بكل صنوفها على أن تكون مقيدة بقيد واحد هو القانون العام والا لانقلب الأمر الى نوع من الفوضى الشاملة كتلك التي كانت سائدة في الحالة الطبيعية الاولى ، فطالما أن للمجتمع القدرة على وضع قاعدة عامة للسلوك وإصدار قوانين يدعمها الوعيد ، لا العقل الذي يعجز عن قهر الانفعالات فمثل هذا المجتمع الذي يبني على القوانين وعلى قوة قادرة على حفظه يسمى الدولة ، ويسمى الاشخاص الذين يعيشون في حمايته المواطنون ([٦٢]) .

إن سبينوزا هنا يدعونا الى عدم قبول فكرة كبت الحرية الفكرية ، ويقرر أن هذا الكبت لن يؤدي الا الى النفاق والرياء ، ومن هذه القاعدة يستهجن إسبينوزا فكرة قيام الحاكم بكبت الحريات عن طريق إيداع الأحرار في السجون ويقرر أن أعظم نكبة وأكبر شر يحل بالدولة يتمثل في نفي وسجن واضطهاد الأحرار لأنهم يؤمنون بآراء مخالفة لا يستطيعون إنكارها ، ولا يجب على الحاكم في نظر إسبينوزا أن يمنح قطاعاً من قطاعات المجتمع حرية أكبر من أحد القطاعات الأخرى فلكي يظهر التفوق الحقيقي يجب أن تبسط الحريات على الجميع بمقدار متساو تتيح ظهور القيمة الحقيقية لكل إنسان ، ويمكن تلخص أفكار إسبينوزا عن الحرية في أن حرية التفكير

والقول يستحيل سلبها من الناس ، وأن الحرية الفردية لا تؤثر على هيبة الحكومة أو حقها طالما أن الحرية الفردية ملتزمة بالقانون ، كما أن هذه الحرية لا تمثل خطراً على الأديان فميدان الفلسفة مختلف عن ميدان الدين ([٦٣]) .

النتائج

١-أن برنامج ومنهج سبينوزا يتشابه هو وبرنامج ديكارت ولا يبنتز ، لأنه يتضمن محاولة للاهتداء الى نسق جامع للمعرفة يستند أساساً الى العقل وليس المعطيات التجريبية ، ويتسم بيقينه الكامل ابتداء من أساسه الى نتائجه المميزة .

٢-شكلت فلسفة إسبينوزا إرهاصاً كبيراً على مستوى البيئة الفكرية والثقافية التي كانت سائدة في عصره من خلآل نقده للمبادئ التي قام عليها الفكر الطبيعي والفلسفي في القرن السادس والسابع عشر وذلك بحذوه الإتجاه العقلي التحرري الذي سار عليه فيما بعد كل من كانط وبرونو وديكارت الى كوبرنيكوس وغاليلو .

٣-فلسفة الدين عند سبينوزا كانت ذات اتجاه نقدي وذات تاثير كبير في المناخ الفكري للفلسفة الحديثة فيما بعد من خلال انتقاده للظاهرة الدينية وكيفية اتصالها بالإنسان فقد كان يمتلك الجرأة الفكرية الكافية لوضع الدين موضع الانتقاد .

٤-الاتجاه الفلسفي الجديد لفلسفة الدين الذي خطه إسبينوزا من خلال وضع الظاهرة الدينية جميعها موضع اشكال يستوعب البحث والتدقيق ، اذ تناول اعظم المقدسات في عصره بمنهج عقلي صرف من الكتاب المقدس والطبيعة الالهية والنبوة والمعجزة والآخرة وبحث عن طبيعة علاقة الايمان بالعقل وذلك للوصول الى دراسة عقلية بحته عن مدى صلاحية الدين لتحقيق غاية الانسان بالخلاص ، ومدى امتلاك الدين للحقيقة التي يدعيها.

٥-إن فلسفة إسبينوزا السياسية ذات أهمية خاصة اليوم ؛ لأنها تربط قبول العلم الحديث بالتصور التقليدي لوظيفة الفلسفة المعيارية ، لقد اعتقد إسبينوزا مثل ماكيافللي وهوبز أنه فهم طبيعي الإنسان بصورة صحيحة ، وأن تحليله للموقف السياسي هو بالتالي تعليم سياسي صحيح . ولم ير إسبينوزا مثل ديكارت وهوبز تناقضاً بين الرياضيات والحالة الرياضية للاستدلال من جهة ، وإمكان بناء فلسفة تفصيلية من جهة أخرى .

٦-إن صياغة إسبينوزا للديمقراطية بصرف النظر عن أهميتها التاريخية بطريقة واضحة وتفصيلية بالصعوبات التي يجب أن يواجهها كل أولئك الذين يحبون الحرية ، ولا سيما عدم إمكان حفظ الحرية عندما يغيب حب التأمل .

الهوامش

[١] - محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٤م ، ص١٦٢ .

[٢] – سبينوزا ، علم الاخلاق : تر : جلال الدين سعيد ، دار الجنوب للنشر : (د.ت) ، تونس : ص١١ .

[*] – دارس ديني وفيلسوف ايطالي حكم عليه بالهرطقة من الكنيسة الكاثوليكية ولد عام ١٥٤٨ ، وتوفى في روما عام ١٦٠٠ كان راهياً في البداية ولكنه انتقل من الدراسات اللاهوتية الى الفلسفة .

[٣] – كرم ، يوسف " تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ، ط٥ ، القاهرة ، (د.ت) ، ص١٠٦ .

[٤] – ينظر : سبينوزا ، علم الاخلاق : مصدر سابق : ص١٠ .

[٥] – ينظر : محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، مصدر سابق ، ص١٦٣ .

[٦] – كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٠٦–١٠٧ .

[٧] – كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٠٨–١٠٩ .

[٨] – بريهة ، اميل : تاريخ الفلسفة ، ج٤ ، القرن السابع عشر ، تر : جورج طرابيشي ، ط١ ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٣م ، ص٢٠٢ .

[٩] – ينظر : محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، مصدر سابق ، ص١٨٥ .

[١٠] – كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٠٧–١٠٨ .

[١١] كوتنغهام ، جون : العقلانية فلسفة متجددة ، تر : محمود منقذ الهاشمي ، مركز الانماء الحضاري ، ط١ ، ١٩٩٧م ، – ص٦٠ .

[١٢] – بريهة ، اميل : تاريخ الفلسفة ، ج٤ ، القرن السابع عشر ، مصدر سابق ، ص١٩٧ .

[١٣] – محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، مصدر سابق ، ص١٨٧–١٨٨ .

[١٤] – كوتنغهام ، جون : العقلانية فلسفة متجددة ، مصدر سابق ، ص٦٨ .

[١٥] – بريهة ، اميل : تاريخ الفلسفة ، ج٤ ، القرن السابع عشر ، مصدر سابق ، ص٢٠٣ .

[١٦] – كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١١٦ .

[١٧] – إسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ، ط١ ، ترجمة وتقديم : د. حسن حنفي ، مراجعة : د. فؤاد زكريا ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٥ ، بيروت ص١٠ .

[١٨] – كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١١٦–١١٧ .

[١٩] – رويس ، جوزايا : روح الفلسفة الحديثة ، ط١ ، تر : أحمد الأنصاري ، مراجعة : حسن حنفي ، الهيئة العامة لشؤن المطابع الأميرية ، ٢٠٠٣ ، القاهرة ، ص١١ .

[٢٠] – كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١١٧ .

[٢١] – إسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ، ط١ ، مصدر سابق ، ص٩ .

[٢٢] – كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١١٩ .

[٢٣] – ينظر : نصري ، د. هاني يحيى : دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ٢٠٠٢ ، بيروت – لبنان ، ص٢١٧ . وينظر : رسل ، برتراند : تاريخ الفلسفة الغربية ، ك٣ ، الفلسفة الحديثة ، تر : د. محمد فتحي الشنيطي ، المطبعة العامة للكتاب ، ١٩٧٧م ، ص١٢٢–١٢٣ .

[٢٤] – ينظر : الفلسفة الحديثة (نصوص مختارة) ، اختيار وترجمة : د. محمد سبيلا ، د. عبد السلام بنعبد العالي ، افريقيا الشرق ، ٢٠٠١م ، بيروت – لبنان ، ص٢٧٣ ، وينظر : كوتنغهام ، جون : العقلانية فلسفة متجددة ، مصدر سابق ، ص٦١ .

[٢٥] – ينظر : إسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ، ط١ ، مصدر سابق ، ص١٨ ، وينظر : نصري ، د. هاني يحيى : دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة ، مصدر سابق ، ص٢١٥–٢١٦ .

[٢٦] – ينظر : شاخت ، ريتشارد : رواد الفلسفة الحديثة ، تر : د. احمد حمدي محمود ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، (د.ت) ، ص٩٧ ، وينظر : رسل ، برتراند : تاريخ الفلسفة الغربية ، ك٣ ، الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٢٣ .

[٢٧] – نصري ، د. هاني يحيى : دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة ، مصدر سابق ، ص٢١٦ .

[٢٨] – رسل ، برتراند : تاريخ الفلسفة الغربية ، ك٣ ، الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٢٤ ، و ينظر : الفلسفة الحديثة (نصوص مختارة) ، مصدر سابق ، ص٢٧٣ .

[٢٩] – محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦م ، ص١٤١–١٤٢ .

[٣٠] – ليوشتراوس ، و جوزيف كروبسي : تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديس حتى إسبينوزا ، مصدر سابق ، ص٦٨٣ .

[٣١] – بريهة ، اميل : تاريخ الفلسفة ، ج٤ ، القرن السابع عشر ، مصدر سابق ، ص٢٢٧–٢٢٨ .

[٣٢] – محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٤٣ .

[٣٣] – ليوشتراوس ، و جوزيف كروبسي : تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديس حتى إسبينوزا ، ج١ ، تر : محمود سيد أحمد ، مراجعة وتقديم : إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٥م ، القاهرة ، ص٦٨٢–٦٨٣ .

[٣٤] – محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٤٢–١٤٣ .

[٣٥] – بريهة ، اميل : تاريخ الفلسفة ، ج٤ ، القرن السابع عشر ، مصدر سابق ، ص٢٢٧ .

[٣٦] – رويس ، جوزايا : روح الفلسفة الحديثة ، ط١ ، مصدر سابق ، ص١١–١٢ .

[٣٧] – بريهة ، اميل : تاريخ الفلسفة ، ج٤ ، القرن السابع عشر ، مصدر سابق ، ص٢٢٨ .

[٣٨] – المصدر نفسه ، ص٢٢٨–٢٢٩ .

[٣٩] – المصدر نفسه ، ص٢٢٩–٢٣٠ .

[٤٠] – ليوشتراوس ، و جوزيف كروبسي : تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديس حتى إسبينوزا ، مصدر سابق ، ص٦٦٣ .

[٤١] – ينظر : إسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ، ط١ ، مصدر سابق ، ص ١٦ ، وينظر : رسل ، برتراند : الفلسفة الغربية ، ك٣ ، مصدر سابق ، ص١٢١–١٢٢ .

[٤٢] – محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، مصدر سابق ، ص٢١٢–٢١٣ .

[٤٣] – رسل ، برتراند : الفلسفة الغربية ، ك٣ ، مصدر سابق ، ص١٢٢ .

[٤٤] – محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، مصدر سابق ، ص٢١٣ .

[٤٥] – كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١١٨–١١٩ .

[٤٦] – محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، مصدر سابق ، ص٢١٤–٢١٥ .

[٤٧] – محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٦٩–١٧٠ .

[٤٨] – محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، مصدر سابق، ص٢١٥ .

[٤٩] – محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٧١ .

[٥٠] – محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٧٢ .

[٥١] – محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، مصدر سابق، ص٢١٥ .

[٥٢] – محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٧٢–١٧٣ .

[٥٣] – محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٧٣–١٧٤ .

[٥٤] – ليوشتراوس ، و جوزيف كروبسي : تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديدس حتى إسبينوزا ، مصدر سابق ، ص٦٦٣–٦٦٤ .

[٥٥] – محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٧٤ .

[٥٦] – ينظر : الفلسفة الحديثة (نصوص مختارة) ، مصدر سابق ، ص٢٧٤ ، وينظر : ليوشتراوس ، و جوزيف كروبسي : تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديدس حتى إسبينوزا ، مصدر سابق ، ص٦٧٦–٦٧٧ .

[٥٧] – محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٧٤–١٧٥ .

[٥٨] – ينظر : إسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ، ط١ ، مصدر سابق ، ص ١٧ ، وينظر : محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٧٥–١٧٦ .

[٥٩] – ينظر : محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، مصدر سابق، ص٢١٦ . وينظر : إسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ، ط١ ، مصدر سابق ، ص ١١ .

[٦٠] – محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، مصدر سابق ، ص١٧٦–١٧٧ .

[*] – جورج كورك هنريغ فون رايت : فيلسوف فيتجنشتايني فلندي (١٩١٦–٢٠٠٣) .

[٦١] – محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، مصدر سابق، ص٢١٦–٢١٧ .

[٦٢] – ينظر : سبينوزا ، علم الاخلاق : مصدر سابق : ص٢٩٩–٣٠٠ .

[٦٣] – محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، مصدر سابق، ص٢١٨ .

قائمة المصادر والمراجع

١– إسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ، ط١ ، ترجمة وتقديم : د. حسن حنفي ، مراجعة : د. فؤاد زكريا ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٥ ، بيروت .

٢–بريهة ، اميل : تاريخ الفلسفة ، ج٤ ، القرن السابع عشر ، تر : جورج طرابيشي ، ط١ ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٣م .

٣–رسل ، برتراند : تاريخ الفلسفة الغربية ، ك٣ ، الفلسفة الحديثة ، تر : د. محمد فتحي الشنيطي ، المطبعة العامة للكتاب ، ١٩٧٧م .

٤-رويس ، جوزايا : روح الفلسفة الحديثة ، ط١ ، تر : أحمد الأنصاري ، مراجعة : حسن حنفي ، الهيئة العامة لشؤن المطابع الأميرية ، ٢٠٠٣ ، القاهرة .
٥-سبينوزا ، علم الاخلاق : تر : جلال الدين سعيد ، دار الجنوب للنشر ، (د.ت)، تونس .
٦-شاخت ، ريتشارد : رواد الفلسفة الحديثة ، تر : د. احمد حمدي محمود ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، (د.ت) .
٧-الفلسفة الحديثة (نصوص مختارة) ، اختيار وترجمة : د. محمد سبيلا ، د. عبد السلام بنعبد العالي ، افريقيا الشرق ، ٢٠٠١م ، بيروت – لبنان
٨-كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ، ط٥ ، القاهرة .
٩-كوتنغهام ، جون : العقلانية فلسفة متجددة ، تر : محمود منقذ الهاشمي ، مركز الانماء الحضاري ، ط١ ، ١٩٩٧م .
١٠-ليوشتراوس ، و جوزيف كروبسي : تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديدس حتى إسبينوزا ، ج١ ، تر : محمود سيد أحمد ، مراجعة وتقديم : إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٥م ، القاهرة .
١١-محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٤م .
١٢-محمود ، زكي نجيب : قصة الفلسفة الحديثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦م
١٣-نصري ، د. هاني يحيى : دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ٢٠٠٢ ، بيروت – لبنان .

List of sources and references

1- Espinoza: A Thesis on Theology and Politics, 1st edition, translation and presentation: Dr. Hassan Hanafi, review: Dr. Fouad Zakaria, Dar Al Tanweer for Printing, Publishing and Distribution, 2005, Beirut.

2- Beriha, Emile: History of Philosophy, c. 4, seventeenth century, see: George Tarabishi, 1st floor, Dar Al-Taleea for Printing and Publishing, Beirut - Lebanon, 1983 AD.

3- Russell, Bertrand: A History of Western Philosophy, K3, Modern Philosophy, Ter: D. Muhammad Fathi Al-Shaniti, General Book Printing, 1977 CE.

4- Royce, Gozaya: The Spirit of Modern Philosophy, 1st edition, Ter: Ahmad Al-Ansari, Revision: Hassan Hanafi, The General Authority for Emiri Press Affairs, 2003, Cairo.

5- Spinoza, Ethics: Tr: Jalaluddin Saeed, South Publishing House, (D.T.), Tunisia. Richard: Pioneers of Modern

6-Philosophy, see: Dr. Ahmad Hamdi Mahmoud, Reading for All Festival, Family Library, (D.T).

7- Modern philosophy (selected texts), selection and translation: d. Muhammad Sabila, d. Abd al-Salam bin Abd al-Aali, East Africa, 2001, Beirut – Lebanon

8- Karam, Youssef: A History of Modern Philosophy, Dar Al-Maarif, 5th floor, Cairo.

9- Cottingham, John: Rationality is a renewed philosophy, see: Mahmoud Munqeth Al-Hashemi, Center for Cultural Development, 1st edition, 1997 AD.

10- Leo Strauss and Joseph Cropsey: A History of Political Philosophy from Theucedides to Espinoza, part 1, T: Mahmoud Sayed Ahmed, review and introduction: Imam Abdel Fattah Imam, Supreme Council of Culture, 2005 AD, Cairo.

11- Muhammad, Dr. Ali Abd al-Mo'ti: Modern Philosophical Streams, University Knowledge House, 1984.

12- Mahmoud, Zaki Naguib: The Story of Modern Philosophy, The Committee of Authorship, Translation and Publishing, Cairo, 1936.

13- Nasri, Dr. Hani Yahya: An invitation to enter the history of contemporary philosophy, 1st floor, University Foundation for Studies and Publishing, 2002, Beirut - Lebanon.